

المدينة والقيم: دراسة لتمثيلات وممارسات المغاربة للجوار داخل السكن العمودي،

بجي ميموزا - القنيطرة-

**The City and Values: A Study of Moroccan Representations
and Practices of Neighborhood Within Vertical Housing,
Mimosa Neighborhood - Kenitra-**

د. محمد الراشدي⁽¹⁾

الملخص

السكن العمودي خيار تفرضه ضرورات الحياة الحضرية، فهو يتماشى وأسلوب العيش داخل المدينة، لأنه يوفر عددا أكبر من الشقق، خصوصا في مراكز المدن... لقد كان لهذا الانتقال آثار على سلوك الأفراد وعاداتهم ونمط عيشهم، وهو تأثير سيظهر بجلاء في المسكن، حيث ستطفو على سطح العلاقات مشاكل، مرتبطة بتسيير هذه الملكية المشتركة، فتتعمق الهوية، مما يحول دون قيام علاقات جوار سوية. من هذه النقطة ينبع إهتمامنا بالجوار ضمن هذا الدراسة؛ أي تأثير الجوار وقيمه وممارساته وتمثيلات الأفراد حوله، جراء السكن العمودي وما يترتب عنه من مشاكل تتعلق بالأبعاد الثلاثة الاتية: الفضاء المشترك ومشاعر الانتماء والخصوصية. الكلمات المفتاحية: الجوار، الملكية المشتركة، التمثيلات، الممارسات، الفضاء المشترك، مشاعر الانتماء، الخصوصية.

Abstract

living in vertical housing is now imposed by the necessities of urban life. This type of residence best matches the new lifestyle in modern cities. This change from vertical to horizontal residence has brought up a change in individuals' behaviour, and new problems arise, like those linked to the common property. These problems turn into an obstacle that prevents the establishment of healthy neighbourly relations.

This research will focus on how vertical habitat influence the residents, their values, its practices, and the problems linked to the following three dimensions: the common area; feelings of belonging; and privacy.

Keywords: neighbourhood, representations, practices, shared space, sense of belonging, privacy.

⁽¹⁾ محمد الراشدي؛ أستاذ وباحث في السوسيولوجيا

يروم هذا البحث الذي ينتمي لما بات يعرف بالبحوث الميكرو-سوسيولوجية⁽²⁾، الوقوف عند أحد أهم تجليات العيش داخل المدينة، والذي كان نتيجة لصيرورة تطورها، ونخص بالذكر هنا الجوار، خصوصا ذاك الذي يرتبط بمعيش الأفراد في السكن العمودي المشترك، هذا الذي فرضته التحولات التي أحدثت تغيرات كبيرة شهدتها المجتمع المغربي في السنوات الثلاثين الأخيرة (الهجرة القروية المتزايدة، ظهور أحياء هامشية، سكن عشوائي، مركزية الخدمات الأساسية...) مما أدى إلى تحول المدينة والمجال الحضري ككل، عبر مجموعة من السيرورات التي ستلحق بنياتها، سواء الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية، فتحوّلت إلى فضاء جذب للكثيرين، لدرجة صار معها الحصول على سكن في مركزها مهمة شبه مستحيلة. وبات الحل الوحيد أمام المواطنين ومؤسسات الدولة على حد سواء، للتوفر على سكن داخل هذا الحيز من المدينة هو الشقق التي تتكدس بشكل عمودي الواحدة فوق الأخرى، عوض السكن الأفقي المستقل الذي كان سائدا من قبل في نفس الرقعة الجغرافية، خصوصا مع تزايد الطلب على المساكن مقابل تقلص المجال الترابي المخصص للسكنى.

إن هذا التحول الذي شهدته مساكن المغاربة، كان له تأثير كبير على تصرفاتهم وسلوكياتهم بل وأفكارهم وتصوراتهم سواء إزاء السكن أو الحي أو الجار، وهو ما سندعى إلى الوقوف عنده، في إطار هذه الدراسة، من خلال محاولة رصد تجليات التحول التي شهدتها علاقة الأفراد بحيزهم وجيرانهم ومقابلتها بالتمثلات التي كانت سائدة في الأذهان من قبل، عبر الإشتغال على الموروث الثقافي من خلال الأمثال الشعبية والأقوال المأثورة التي تؤرخ لعلاقات الجوار عند المغاربة في زمن ماض.

إن المسكن ليس مجرد بناء هندسي فحسب، بل ينطوي على أبعاد نفسية واجتماعية ويحيل على ما هو اقتصادي كذلك، لهذا يجب مقارنته من كافة هذه الأبعاد، خصوصا أنها جميعا تنعكس في علاقات الأفراد بعضهم ببعض، وفي علاقتهم بالمجال الجغرافي الذي يشغله المسكن، وتعتبر علاقات الجوار، في نظرنا، من أهم التجليات التي تجمع في آن واحد

(2) يستخدم تعبير «الميكروسوسيولوجيا» Micro-sociology للدلالة على مجموعة الدراسات الاجتماعية المعنية بالمجتمعات صغيرة الحجم، كما هو الحال بالنسبة إلى جماعات العمل ضمن مؤسسات العمل، وجماعات الطلبة في مؤسسات التعليم، إضافة إلى الدراسات المعنية بقضايا الأسرة وجماعات الأقران؛ والمشكلات اليومية التي يعيشها الناس في حياتهم الاعتيادية.

بين البعد المادي الذي يجسده المسكن، وبين البعد الرمزي، الذي تمثله علاقات الأفراد مع بعضهم البعض.

المحور الأول: دواعي اختيار الموضوع واشكالاته

1. الجوار فعل مركب:

ينبع إهتمامنا بالجوار إذن، من الدور الذي يحظى به هذا الأخير في تطوير البنية العلائقية بين الأفراد، حيث إن دراسة تجلياته، من شأنها أن تسمح بالتوقف عند نوعية القيم التي تسود داخل المجتمع، والتي تؤطر فكر الأفراد وتصوراتهم، وتوجه سلوكهم. لذا نسعى من خلال هذا البحث إلى فهم علاقات الجوار، خصوصا في المجال الحضري، عبر الوقوف على مختلف التحولات التي تشهدها هذه العلاقات، من خلال التركيز على تمثيلات الناس للجوار باعتباره فضاء يحيل على التعايش والتضامن، وما يعكسه من علاقات مركبة ومتداخلة. لكل هذه الأسباب نتوخى تتبع مختلف التغيرات التي لحقت بالأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية للمغاربة، والتي أثرت بشكل بليغ على ممارساتهم لعلاقات الجوار.

بناء على ما سبق حاولنا أن نسلط الضوء على ممارسات الجوار لدى أفراد العينة من خلال التركيز على أربع مستويات أساسية نقدمها كما يلي:

المستوى الأول تطرقنا فيه لتمثيلات الأفراد حول الجار والجوار، وكانت غايتنا منه التعرف على ما يحمله الأفراد من مشاعر وتصورات حول الجار، وكذا الأسباب التي دفعتهم لاختيار هذا النوع من السكن بالضبط.

المستوى الثاني: يتعلق بمشاعر الانتماء: وحرصنا فيه على فهم الكيفية التي يعبر من خلالها الأفراد عن مشاعر الانتماء لحيمهم ومسكنهم، وكيف تتجلى هذه المشاعر في سلوكهم وتصرفاتهم إزاء هذه الفضاءات التي يتقاسمونها مع الغير.

أما المستوى الثالث فقد عمدنا للإطلاع فيه على مشاعر الخصوصية أو الحميمية وحجم تأثيرها على متانة علاقات الجوار، لأن من شأن هذه المشاعر أن تكون عائقا أمام توطيد هذه العلاقة كما يمكن أن تصبح سببا في قوتها وصلابتها. لهذا السبب سعينا في هذا المستوى من البحث إلى استفسار أفراد العينة بطرق متعددة، عن مدى تأثير حيواتهم الخاصة بالسكن العمودي، وأثر ذلك على العلاقات بين الجيران .

في حين يهتم المستوى الرابع من البحث بالفضاء المشترك ومن خلاله نود قياس المستويين الأول والثاني عبر الإطلاع على الطريقة التي يتم بها إستغلال الفضاء المشترك من طرف الأفراد، لأن طبيعة إستغلالهم له من شأنها أن توضح درجة مشاعر الإنتماء والحميمية التي يعبر عنها الأفراد من خلال سلوكيات تظهر أغلبها في طرق إستعمال الفضاء المشترك، سواء في الأروقة أو المرائب أو السطح.

سعينا في هذه المستويات الأربع لفهم علاقات الجوار داخل السكن العمودي في حي ميموزا، فهي إذن عبارة عن مقاييس حاولنا من خلال تجلياتها أن نفهم كيف يعيش الأفراد تجربة الجوار في هذا النمط السكاني، الذي وإن ظهر منذ أمد في التجربة العمرانية المغربية، خصوصا مع التغلغل الاستعماري، حيث خصصت هذه المساكن العمودية لليهود والأجانب في البداية، وفي المقابل خصصت أحياء بكاملها للأهالي المسلمين، كحي الحبوس في البيضاء، الذي حرص فيه المستعمر على الحفاظ على الطابع والخصوصية الثقافية للسكان، لهذا لم يكن السكن العمودي من قبل خيارا ضروريا ولا مفروضا، غير أن التغيرات المجالية والكثافة السكانية والتحولت الثقافية للمغاربة، جعلت الكثيرين يقبلون على شراء هذا النوع من السكن، خصوصا بالنسبة لمن يود أن يستقر في مركز المدينة.

هذا "الإختيار" الذي لا يعتبر مسكنا فقط، وإنما يحمل في طياته تجربة ثقافية فريدة من نوعها، ستنعكس حتما على سلوك وتصورات الأفراد. وأول تجل لهذا الانعكاس سيكون بالضرورة هو علاقات الجوار، بما أن هذا الأخير هو العلاقة الأساسية التي تقوم عليها كل العلاقات الأخرى داخل الحي. ومن هذا المنطلق ينبع إهتمامنا به، لأن فهم بنية الجوار داخل الحي يمكننا من فهم نوعية العلاقات السائدة وطبيعتها، ودرجة التضامن والتآزر الموجودة بين الأفراد، كما يسمح لنا بإستشراف ما ستكون عليه البنية الإجتماعية في المستقبل القريب، وذلك من خلال معرفة مشاعر الإنتماء التي يحملها الأفراد، ومدى ولائهم للحي وانخراطهم في مشاكله.

2. الإشكالية:

ونحن بصدد إنجاز هذا البحث - الذي نسعى فيه إلى رصد نوعية قيم الجوار التي يحملها الأفراد، وتمثلاتهم عن الجار والتجاور، ومقارنة هذه القيم والتمثلات بالممارسات التي يقوم بها الأفراد في علاقتهم بجيرانهم، في مدينة القنيطرة، وبالأخص أحد أهم

أحياءها، هذا الذي يتمتع باختلاف الساكنة وتنوع مشاربها، ونقص حي "ميموزا" الذي يجمع بين مساكن عمودية تنتمي للسكن الراقى، وبين مساكن أخرى تنتمي للسكن المتوسط المعايير والسكن الاجتماعي- من الطبيعي أن يكون أول سؤال سيتبادر إلى ذهننا هو ما الجوار؟ وماهي مكوناته؟ ثم كيف ينظر الأفراد لجيرانهم ولعلاقات الجوار؟ وماهي خواصه؟ وماهي حقوقه وواجباته كما يحددها؟ ثم ما الذي ظل ثابتا في العلاقات القائمة بين الجيران وما الذي تغير فيها؟ ثم ما أسباب هذا التغير إن وقع؟ هل واكب الجوار من حيث هو ممارسة واقعية يومية، التحولات التي شهدتها المجتمع المغربي؟ بمعنى آخر هل كان للتغيرات التي لحقت البنى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية تأثير في طبيعة السلوك الذي يربطنا بالغير المجاور وبفضاء الجوار؟ هل لهذه البنى السابقة (العامل الاقتصادي، العامل الاجتماعي، العامل الوظيفي) تأثير كذلك على اختيار الأفراد لنمط السكن ومجاليه ومستواه؟ وما مدى تأثير هذه العوامل على ممارسات الجوار وتمثلاته؟ هل النموذج الثقافي الذي بات يهمن على الأفراد اليوم والمتمثل في طابع الفردانية والإنطواء على الذات، دخل في اختيار نمط السكن وبالتالي علاقات الجوار، أم أنه نتيجة لهذا النمط؟ هل يملك السكن العمودي من تلبية الحاجات الاجتماعية والثقافية للفرد المغربي؟ هل السكن العمودي كقيل بتلبية حاجيات الفرد الثقافية، كالاحتفال بعيد الأضحى؟ أليس إستغلال الفضاء المشترك تعبيرا عن عدم توافق هذا النوع من السكن مع الأبعاد الثقافية للفرد المغربي؟ وهل من شأن هذا التعارض أن يخلق أزمات في علاقات الجوار؟ وقد حرصنا على تبويب هذه الأسئلة إلى أربع أقسام تماشيا مع مداخل البحث الميداني التي تحدثنا عنها سالفا.

3. الفرضيات:

للإجابة عن مجموع ما تقدم من أسئلة، حاولنا أن نصوغ بعض الفرضيات والإجابات المحتملة، والتي نعتقد أنها تجيب بشكل أو بآخر، عن الإشكالات التي يطرحها هذا البحث، وقد حاولنا على امتداده أن نختبرها سواء من خلال تعديلها عبر القراءات المستمرة، أو من خلال تمحيصها من حيث جدواها وجديتها في تفسير الظاهرة قيد الدراسة، عبر مقارنتها بما حصلناه من عملنا الميداني. وفيما يلي بعض الفرضيات التي بدت لنا أنها تتدخل في تحديد طبيعة علاقة الجوار القائمة بين الأفراد داخل السكن العمودي.

- I. العوامل الاقتصادية والاجتماعية والوظيفية لها تأثير في اختيار نوعية السكن وموضعه ومساحته؛
 - II. تؤثر البنية الثقافية (التقاليد، العادات، المستوى الثقافي...) في ممارسات الجوار لدى الأفراد، سواء فيما يخص تعبيرهم عن مشاعر الانتماء، أو إستغلالهم للفضاء المشترك، أو تمتعهم بحياتهم الخاصة والحميمية؛
 - III. إن الجوار بمعناه الجغرافي لم يعد العلاقة الأولية والرئيسية لدى الأفراد؛
 - IV. إن التمثلات التي يحملها الأفراد حول الجوار، خصوصا الإيجابية منها، لا تنعكس على سلوكهم وممارساتهم؛
 - V. الحفاظ على الخصوصية وعلى قدر من الحميمية، يدفع الأفراد إلى العزلة والميل إلى إبقاء العلاقات مع الجيران سطحية؛
- المحور الثاني: الأبعاد المنهجية للدراسة**
- 1. منهجية البحث واختيار العينة**

منهج البحث: إن دراسة التحولات الاجتماعية في أي مجتمع تطرح تحديا على مستوى تبني المنهجية الكفيلة برصد هذه التحولات وتداعياتها الذاتية، حيث إنها تقتضي الإلمام بالسيرورة التاريخية للمجتمع المدروس ثم العوامل والسياقات الفاعلة في التغير الاجتماعي، كما تقتضي وصفا دقيقا ومعاينة منظمة للواقع بكل تجلياته ومظاهره وظواهره. لهذا ارتأينا أن نشتغل وفق المنهجية الكيفية وذلك لصعوبة تكميم الظاهرة التي ندرسها، لانتمائها لمجال القيم والتمثلات. وفي إطار هذه المنهجية الكيفية، عمدنا إلى تبني المنهج السوسيو-تاريخي وكذلك الوصفي، اعتبارا للإمكانيات التي يتيحها الأول على مستوى فهم العلاقة الجدلية بين الماضي والحاضر، أي علاقات الجوار كما عاشها بعض أفراد العينة في الماضي، أو حسب ما تنقله إلينا بعض المصادر، ومقارنتها بمعيش الأفراد في الحاضر، فالمنهج التاريخي يمكننا إذن من إعادة قراءة وبناء هذا التاريخ من زاوية سوسيولوجية، ويتيح المنهج الوصفي إمكانية القبض على الحاضر بكل تجلياته وظواهره، حيث يمكننا من وصف خصائص المجتمع المدروس، وكذلك توصيف دقيق لعلاقات الجوار بين الأفراد في المجال الذي خصصنا هذا البحث لدراسته.

تقنيات البحث إن اعتمادنا الكبير على تقنيات المنهج الكيفي لا ينفي انفتاحنا على بعض تقنيات المنهج الكمي، التي سمحت لنا بتكميم بعض مخرجات المقابلات التي قمنا بها

مع أفراد العينة، تكميم كان ضروريا لتسهيل عملية التعليق والتحليل والخروج باستنتاجات تهم هذا البحث. ومن بين التقنيات التي اعتمدناها في جمع البيانات والتي توسمنا من خلالها الوقوف على الدلالة العميقة لمشاعر الجوار وتجلياته لدى المغاربة، من خلال النموذج الذي اختبرناه، وسعينا بواسطتها لتفكيك البنية المركبة التي تنطوي عليها هذه النوعية من العلاقات، نذكر على سبيل المثال لا الحصر: الملاحظة المباشرة، المقابلة نصف الموجهة، المجموعة البؤرية، والاستمارة خصوصا الالكترونية، التي لجأنا إليها ابان فترة الحجر الصحي، والتي أرسلناها لعدد من أفراد العينة.

عينة البحث: لا يخفى على الكثير من المشتغلين بحقل الدراسات الإنسانية أن اختيار العينة الممثلة للمجتمع المدروس يعد من أهم الصعوبات التي قد تواجه الباحث، لأن من شأنه التأثير إما سلبا أو إيجابا على نتائج البحث. لهذا تم اختيار أفراد عينتنا المكونة من 250 شخصا، في البداية عبر شبكة العلاقات التي تربطنا ببعض أفراد العينة *Personnes Ressources*، ثم اعتمدنا بعد ذلك استراتيجية كرة الثلج، التي مكنتنا من التعرف على أفراد آخرين تتوفر فيهم نفس شروط ومزايا العينة، هذه الشروط التي حددناها في السكن العمودي بالأساس، أو امتلاك شقة داخل مبنى يتكون من عدة شقق، داخل المجال الجغرافي المتمثل في حي ميموزا بمدينة القنيطرة. هذا الحي الذي يقع في مركز المدينة تقريبا، ويستقطب العديد من السكان القادمين من مناطق مختلفة، والذين ينتمون في أغلب الأحيان للطبقة المتوسطة، ويحتوي الحي في جل مساحته على مجموعات سكنية عمودية تنقسم إلى ثلاثة أنواع على الأقل: سكن عالي المعايير *Haut Standing*، وآخر متوسط المعايير *Moyen Standing*، وثالث سكن اجتماعي (عمارات الشعبي مثلا). لهذا السبب نعتقد أن مجتمع البحث هذا قد وفر لنا عينة بحث قادرة على عكس هذا التنوع الذي ينطوي عليه الحي.

2. تحديد المفاهيم والمصطلحات:

كان لزاما قبل البدء في الدراسة الميدانية، أن نقوم بتحديد دلالات المفاهيم المركزية التي ينبنى عليها بحثنا، هذه التي افردنا لها صفحات كثيرة لتدقيق معانيها، من خلال الاطلاع على عدد من المراجع والمصادر، التي يطول ذكرها في سياق هذا المقال، لهذا فضلنا أن نعرض في هذا المقام التعريف الاجرائي فقط، هذا الذي استخلصناه من خلال جرد مجموعة من التعاريف التي أسندت للمفاهيم من طرف المختصين.

- **المدينة:** إن المدينة وحدة اجتماعية مركبة، تحتوي على الكثير من الجماعات التي ترتبط فيما بينها من خلال نسق من العلاقات والتنظيمات المختلفة، والتي تُكوّن بدورها نسقا من العلاقات الاجتماعية اللامتناهية. فهي تتميز بسيادة العلاقات المركبة والمتشعبة، نتيجة هيمنة الاختلافات بين الأفراد، بفعل إنتشار التمايز والتفاوت الطبقي.
- **الجوار:** إن الجوار يرتبط بوجود مجموعة من الأفراد في مجال جغرافي معين، حيث تنشأ بينهم علاقات تتراوح بين التعاون والتكافل أحيانا، وبين الصراع والعداء أحيانا أخرى، وذلك تبعا لطبيعة الوعي الفردي الذي يتحكم في الأفراد في تلك الفترة. وعلى العموم، فإن مفهوم الجوار يحيل على بعدين: البعد الفضائي الجغرافي، والبعد العلائقي ويقصد بالأول مكان الإقامة والسكن. ويقصد بالثاني تجليات التفاعل الاجتماعي داخل هذا البعد السابق.
- **الفضاء المشترك:** إن الفضاء المشترك يعني الأماكن التي ينطوي عليها السكن العمودي، والتي لا تعتبر جزءاً من السكن أو الملكية الخاصة للأفراد، وإنما هي ذاك الجزء من السكن الذي تعود ملكيته للجميع.
- **الحميمية أو الخصوصية:** يقصد به تلك الحدود، المرئية أحيانا والخفية أحيانا أخرى، التي يرسمها الإنسان في علاقته بالذوات الأخرى، وهذه الحدود ليست ثابتة، ولا قارة وإنما هي متغيرة ومتحولة حسب مجموعة من العوامل، التي يحدد من خلالها الشخص، ما يريد إظهاره للغير وما يريد إخفاءه.
- **مشاعر الانتماء:** يحيل على إحساس الأفراد بالانتماء للهوياتي والثقافي للمجال الذي يشغلونه ويعيشون فيه (الحومة/ الحي)، ويتجلى هذا الانتماء في مجموعة من الأنشطة التي تقوم بينهم على مستوى الحي، والتي يمكن أن نسماها بالتضامن الجوّاري الذي يتجلى في إنخراطهم في حل مشاكل الحي بشكل جماعي.
- **التمثل الاجتماعي:** التمثل يحيل على نوع من التصورات التي تتكون لدى الأفراد نتيجة التجارب التي يراكمونها سواء على الصعيد الفردي أو الجماعي، أو من خلال قنوات التنشئة الاجتماعية التي ترسخ لديهم نماذج فكرية معينة، إزاء بعض القضايا أو الموضوعات المحددة.

- القيمة: يحيل من جهة على ما يحمله الأفراد من تصورات وتمثلات حول الجوار وهذا هو البعد الأخلاقي، ويدل من جهة ثانية، على الممارسات والتصرفات التي ينسجها الأفراد مع بعضهم البعض في إطار الجوار وهذا هو البعد القانوني، حيث يتماهى معنى القيمة هنا مع معنى المعيار.

المحور الثالث: عناصر الاطروحة ومخرجات البحث

1. تصميم الاطروحة:

كان لزاما علينا للإلمام بموضوع بحثنا أن نعرج على الأدبيات التي قاربت هذا الموضوع ونطلع عليها كي نستفيد منها ونستعين بأغلبيتها في تحليل تجليات الجوار في سلوك الأفراد وكذا في فضاءات المدينة، لهذا لم نقف عند الدراسات التي إهتمت بالجوار فقط، بل تعديناها لتلك التي اعتنت بالمدينة وأدوارها ووظائفها، لذا توقفنا في القسم الثاني من البحث عند المنظرين الأوائل أمثال Max Weber ماكس فيبر (1864-1920)، و Émile Durkheim دوركهايم (1858-1917)، Maurice Halbwachs هالبواك (1877-1945)، وابن خلدون (1332-1406)، الذين كان لهم الفضل في بناء سوسيولوجيا حضرية جديدة بهذا النعت، ثم أردفناه بإستعراض أهم النظريات السوسيولوجية التي تناول أصحابها الجوار كموضوع لدراساتهم، سواء في المجتمع الغربي مثل Claude Serge. Fischer فيشر (1948) و Louis Wirth لويس ويرث⁽³⁾ (1897-1952) و Raymond Ledrut لودريت⁽⁴⁾ (1919-1987)، أو العربية من قبيل العربي اشبودان وعاطف غيث، وسناء الخولي، أو الدراسات المغربية على سبيل المثال Abdelmajid Arrif عاريف⁽⁵⁾ و Françoise Navez-Bouchanine بوشانين⁽⁶⁾ ورشيق. وكان هذا هو محتوى الجزء الأول من القسم الثالث.

أما الجزء الثاني من هذا القسم خصصناه لتفريغ معطيات الدراسة الميدانية، وقد قمنا بتبويبه إلى خمس مستويات، يتعلق الأول منها بفصل خصصناه للأمثال والأقوال

(3) Louis, Wirth, « Urbanism as a Way of Life » in The American Journal of Sociology, Vol. 44, No. 1 (Jul. 1938), The University of Chicago Press.

(4) Le Drut Raymond, « Sociologie Urbaine », PUF, Paris, 1966.

(5) Arrif Abdelmajid, « Pratiques d'Ameublement, Structurations Identitaires et Spatiales », in Espaces et Sociétés, N 87, ed L'Harmatan, 1996.

(6) Navez-Bouchanine, Françoise, « Modèles d'Habiter Usage et Appropriation de l'Espace dans les Quartiers Résidentiels de « Luxe » au Maroc », Annuaire de l'Afrique du Nord, Tome 25, ed CNRS, 1985.

المأثورة التي تستعمل على ألسن المغاربة حول الجوار والجار، ثم أردفناه بفصل حول تمثلات الجوار واختيار المسكن، ثم فصل ثالث بعنوان مشاعر الخصوصية أو الحميمية، وبعده فصل رابع حول الفضاء المشترك وتجليات الجوار، أما الفصل الخامس فقد خصصناه لمشاعر الانتماء وقد توجنا الكل بفصل ختامي خصصناه للخلاصات، وسعينا من خلاله أن نجمل كل ما تقدم من أفكار وملاحظات وإستنتاجات في ملخص يكون بمثابة تركيب للبحث بأكمله.

سأما القسم الأول، فقد خصصناه للأبعاد المنهجية والإشكالية التي قام عليها هذا البحث، كما أدرجنا فيه أهم المفاهيم التي تنبني عليها هذه الدراسة وتعريفها الإجرائية.

2. نتائج الدراسة الميدانية:

سنحاول في هذا المستوى أن نعرض أهم الخلاصات التي توصلنا إليها من خلال البحث الميداني، والتي تصب جميعها في إن أفراد العينة، يعيشون في وضع ينطوي على مفارقة طرفها الأول هو التمثلات التي تلقاها هؤلاء في طفولتهم عن الجار، والتي تكون في معظمها إيجابية تنبني على التضامن والتآزر، والطرف الثاني للمفارقة هو الواقع الفعلي الذي يفرض نوعا من التباعد والانعزالية، نتيجة تغير وتيرة حياة اليوم وإيقاعها. غير أننا سنقوم بعرض هذه الخلاصات عبر تبويبها حسب المستويات الأربع السابقة الذكر.

● المسكن ودواعي اختياره:

لقد إتضح من خلال المقابلات التي أجريناها، أن الفئة التي تشكل عينة بحثنا تنتمي للطبقة المتوسطة، وقد توصلنا لهذا الإستنتاج من خلال مقارنة أثمان السكن ومساحته، فأغلب المستجوبين يمتلكون سكنا يتجاوز ثمنه 610000 درهم، وفي إجابتهم عن سؤال نوع السكن، يقر هؤلاء أن شقتهم تنتمي إما للسكن عالي المعايير أو المتوسط المعايير، وأن إختيارهم له لم يكن محض صدفة (60.7%)، بل كان نتيجة بحث خاص (75%) أما البقية فقد إعتمدت في بحثها على المسكن، على الأصدقاء (9%) أو الأقارب (7%) أو طرق أخرى (9%).

في جوابهم عن طبيعة المعايير التي ساهمت في إختيار المسكن أجاب (70%) من أفراد العينة أن الموقع كان المحدد الرئيس في اختيار هذا الحي، في حين شغل الجوار وطبيعة السكان فقط (2%)، وهذا دليل على أن الجوار اليوم لم يعد ذا أهمية كبرى في إختيار

المسكن، فالعامل الحاسم، حسب أفراد العينة، هو موقع المسكن وقربه من الخدمات الإدارية، ووسائل المواصلات، وهذا ليس بالأمر الغريب فأغلب الناس يقتنون السكن وهو ما يزال مجرد تصميم في الأوراق، ومن ثمة فإن العامل المهيمن على اختيارهم هو موقع المسكن ومساحته وقيمته، أما المستوى الاجتماعي والاقتصادي للجيران، فيتحدد في البداية بنوعية السكن الذي وقع عليه الاختيار وقيمته، هذا الاختيار هو الذي سيكون بمثابة غربال على مستواه سيتحدد المستوى الاجتماعي للقاطنين المستقبليين.

● تمثلات حول الجار وعلاقات الجوار:

الملاحظ من خلال المقابلات التي أجريناها، أن قاطني السكن العمودي في حي "ميموزا"، يمتلكون تصورا ينطوي على بعض الإزدواجية، إذ يعتبرون أن الجار ليس عاملا حاسما في اختيار المسكن، حيث يعتبر حوالي (80%) من العينة أن العلاقة مع الجيران لا تتعدى حدود التحية وتبادل التهاني في المناسبات، بل إن (75%) منهم لا يعرفون سوى 5 إلى 10 أشخاص بالإسم في الحي، ولكن عندما يُسأل هؤلاء عن تصورهم للجار ولحقوقه، تكون تمثلاتهم في أغلب الأحيان إيجابية، ويقرّون أن علاقات الجوار قد عرفت تغيرا ملحوظا مقارنة مع ما كانت عليه وما آلت إليه في الحاضر (89%). كلما كبر حجم المدينة وزادت كثافة سكانها إذن، إلا وتلاشت الروابط الاجتماعية بين الأفراد وقل التجانس.⁽⁷⁾

تخضع علاقات الجوار إذن لنوع من الإنتقاء والتمحيص، الذي بات ضروريا اليوم، نظرا للتنوع القيمي والثقافي الذي صارت تنطوي عليه الحياة الحضرية، فلم يعد الجوار أمرا محتوما بحكم الاشتراك في نفس المكان الجغرافي، ولكن أصبح من الضروري اختيار من يستحق أن تقام معه علاقات جوار من بين السكان الذين يتقاسمون معنا نفس المجال الجغرافي، حتى نتجنب المشاكل والإصطدامات التي من الممكن أن تقع بيننا مستقبلا.

● مشاعر الخصوصية أو الحميمية: تعتبر مسألة الخصوصية أو الحميمية من العوامل المركزية التي تتدخل في اختيار نوعية السكن، بعد الموقع والعامل الاقتصادي طبعاً. فالأفراد يتحرّون في اختيارهم للمسكن أن يكون حافظا لحميميتهم، وصائنا لحياتهم

⁽⁷⁾ Wirth Louis, « Urbanism as a Way of Life » in The American Journal of Sociology, Vol. 44, No. 1 (Jul. 1938), The University of Chicago Press, p 10.

الخاصة، لأن هذه هي الميزة الأساسية التي تجعل منه مأوى وملجأ للذات «Chez-Soi»⁽⁸⁾، حيث يستمتعون بالراحة والطمأنينة والحرية كذلك، بعيدا عن أنظار الآخرين، وبمعزل عنهم.

لقد لاحظنا من خلال هذه الدراسة، أن أغلب أفراد العينة يعاني من مشاكل متعلقة بالخصوصية والحميمية بشكل أو بآخر، ويعزى الأمر في نظرنا أولا لطبيعة المواد المستخدمة في بناء معظم العمارات والمباني في الحي، حيث تؤيد 64% من أفراد العينة هذا المقترح وتعتبر بدورها أن تصميم الإقامات السكنية لا يُمكن من الحفاظ على حميمية الأسر، ويفضح في الكثير من الأحيان حياتهم الخاصة، فالمشكل يبدأ من نوعية مواد البناء التي أستخدمت في تشييد هذه المباني، هذا بالإضافة إلى طبيعة التفاعل بين المغاربة الذي يعتبر فيه الحديث بصوت عال أمر طبيعي.

إن السعي لتحقيق الخصوصية يدفع الأفراد إلى ابتكار طرق عديدة، منها إلحاق تغيرات بالسكن من قبيل إضافة بعض الطاقات Hublots أو إغلاق بعض النوافذ، أو تسقيف بعض الأسطح... وهذه التعديلات دليل على الشرح الكامن بين السياسات العمرانية التي تسهر السلطات على تنزيلها وبين الرهانات الثقافية والاجتماعية القيمة التي يحملها الأفراد إزاء المسكن المقتنى⁽⁹⁾، هذه التي يتم اغفالها من طرف المهندسين والمسؤولين عن السياسات العمرانية أثناء تشييدهم للسكن العمودي⁽¹⁰⁾. ومن الأدلة الأخرى على عدم توافق هذه الوحدات السكنية العمودية من حيث التصميم، مع الحاجيات الثقافية والعقائدية للفرد، الاحتفال بطقوس عيد الأضحى، إذ تخلو الكثير من الشقق من مساحة مخصصة لتخزين الاضحية أو نحرها، فيضطر الأشخاص من أجل إحياء هذا الطقس إلى تقاسم فضاء العمارة المشترك، من قبيل العلية والمرآب، في مناسبة دأبوا على الاحتفال بها بشكل عفوي تلقائي خال من التنميق والتصنع، ترتدي النساء فيه ملابس خفيفة تمكنهم من القيام بالأعمال الموكبة لعملية النحر، من غسل وتنظيف وتقطيع لبعض أجزاء

(8) Gimenez, Irène. Gaillard, Claire-Lise, « de l'Intime aux Intimités en Sciences Sociales », Elsevier Masson, 2018. P 38.

(9) Arrif Abdelmajid, « Pratiques d'Ameublement, Structurations Identitaires et Spatiales », in Espaces et Sociétés, N 87, ed L'Harmatan, 1996, p 122.

(10) Navez-Bouchanine, Françoise, « Modèles d'Habiter Usage et Appropriation de l'Espace dans les Quartiers Résidentiels de « Luxe » au Maroc », Annuaire de l'Afrique du Nord, Tome 25, ed CNRS, 1985, p 296.

الأضحية... مما يضيف على هذه اللحظات طابعا حميميا وخصوصا، لكن مع التصميم الجديد والذي لم يراع أصحابه كل هذه الأبعاد الثقافية يضطر الكثير من الجيران إلى التخلي عن كل هذه المظاهر الاحتفالية، والإكتفاء بنحر الأضحية في فضاء مشترك مع الجيران، في جو يخلو من مظاهر الإحتفال في الكثير من الأحيان. وقد يبلغ الأمر ببعض الأسر حد التخلي عن إحياء هذه الشعيرة فقط أو تفضيل القيام بذلك بالمجالات الترابية القروية التي ينحدرون منها، لأن هندسة المسكن الجديد لا توفر الظروف الملائمة لذلك..

إن لمشاعر الحميمية إذن أثر بليغ في ضعف الرابط الاجتماعي داخل المدن، مما يترتب عنه هشاشة العلاقات الاجتماعية التي تصير سمتها الأبرز هي السطحية والعرضية، وهو أمر تؤكد ردود أفراد العينة الذين إختار 70% منهم الإبقاء على علاقات سطحية مع الجيران، فالأغلبية تفضل أن تبقى العلاقة سطحية وباردة وتحتكم بالضرورة للمنطق العقلاني المؤسس على المصلحة المشتركة، عوض الإحتكام للعاطفة حيث ينكمش الأفراد حول النسيج الأسري، وتضعف الثقة في الجيران وتقل كلما إرتفع المستوى الدراسي للأشخاص، وهو الأمر نفسه الذي ورد في الدراسة التي قام بها المعهد الملكي للدراسات الإستراتيجية، حول الرابط الاجتماعي في المغرب⁽¹¹⁾.

● الفضاء المشترك وعلاقات الجوار: لقد جعلنا من هذا الفصل مدخلا لفهم علاقات الجوار كما يتمثلها الأفراد، وذلك على ضوء إستخدامهم لهذا الفضاء المشترك، لأن طبيعة إستعمالهم له من شأنها أن تعكس نوعية التفاعل القائم بين الجيران، وكفيلة بأن تكشف كذلك التناغم أو الصراع الذي تشهده علاقاتهم، حيث أكد أكثر من 80% من أفراد العينة، أن جل النزاعات التي تقع بين السكان يكون سببها الشطط في إستغلال الفضاء المشترك بشكل يتعارض مع القوانين المتفق حولها. ومن أوجه هذا الاستغلال يمكن أن نذكر على سبيل المثال: ترك الأحذية أمام الباب، أو وضع بعض الأثاث مثل قنينة الغاز أو سلة الأزياء أو مواقد الفحم خصوصا في مناسبة عيد الأضحى، كما قد يصل الإستغلال مراتب عليا، حين يقدم بعض الجيران على إغلاق طابق بأكمله، بدعوى أن المساحة التي توجد بين الشقق في ذاك الطابق تخصهم وحدهم، ضاربين بعرض الحائط كل مقومات السكن المشترك، وذلك باقتطاعهم لجزء من المسكن، وحرمان البقية منه.

(11) Rapport de l'Enquête Nationale sur le Lien Social au Maroc, l'Institut Royal des Etudes Stratégiques, 21 mars 2012. P 43.

إن المكان العام في الثقافة العربية تغيب فيه الحقوق، ويغيب معها مفهوم المجال الخاص⁽¹²⁾، لهذا فالاستخدام المنافي للقوانين المنظمة للسكن المشترك، مردته التصور الذي يحمله الأفراد عن الفضاء العام الذي تنتهي إليه المساحات المشتركة داخل المبنى، حيث يعتقد هؤلاء أن من حقهم استخدام الفضاء المشترك على الوجه الذي يرضونه، مادام الأمر، في نظرهم، لا يمس المجال الخاص بالغير، خصوصا أن باقي الجيران يتخرجون في الكثير من الأحيان من إبداء انزعاجهم من مثل هذه التصرفات ويرفض الكثير منهم (حوالي 70%) اللجوء للقضاء لحل هذه النزاعات، وذلك نتيجة المفارقة القيمية التي تحدثنا عنها سالفا، والمتجلية في التقابل بين ما يحمله الأفراد من قيم وتمثيلات إيجابية تجاه الجار، وبين الحقوق والواجبات التي بات يفرضها السكن المشترك.

السكن العمودي ومشاعر الانتماء: من المعلوم أن الشعور بالانتماء كلما كان قويا، كلما تعزز الشعور بالاندماج في المجتمع المحلي، وبالتالي تقوى الرابط الاجتماعي⁽¹³⁾، لهذا حاولنا من خلال هذا البحث أن نسلط الضوء على هذه المشاعر من خلال مجموعة من التصرفات التي تصدر من الأفراد بشكل يومي، والتي من شأنها أن تفضح طبيعة مشاعر انتمائهم للسكن، وتبرز مدى قوتها أو ضعفها، مثل الحرص على إغلاق أبواب العمارة وبوابة المرائب، أو عدم التأخر في أداء واجب "السانديك" Syndic والتفاعل الإيجابي مع ما قد يعترى المبنى من مشاكل، وذلك عبر المساهمة الفعلية في حلها بالإضافة للتطبيق التام والصارم للقوانين التي سنّها مكتب الملاك المشتركين. وقد تبين لنا من خلال البحث الميداني الذي أجريناه، أن حرص أفراد العينة على أداء واجبات "السانديك"، لا يواكبه انشغالهم بمشاكل المبنى، ففي الوقت الذي يؤدي فيه 95% هذه المساهمة، نجد أن قلة منهم فقط من يتفاعل مع باقي المشاكل التي يتخبط فيها المسكن (حوالي 30%).

إن هذا الميل إلى تجاهل المشاكل التي تعاني منها العمارة، والاهتمام فقط بما يمس الذات، يعبر بجلاء عن الإنكماش الذي تشهده مشاعر الانتماء في السكن المشترك، حيث

(12) Hall Edward-T, « La Dimension Cachée », Traduit par Petita Amélie, Fabre-Luce, Anne, Éditions Points, collection points Essais, 2014, p197.

(13) Stryckman Paul, « Espace et Communication Réflexion sur le Sentiment d'Appartenance », Communication et organisation [En ligne], 1 | 1992, mis en ligne le 26 mars 2012, consulté le 19 avril 2019. URL : <http://journals.openedition.org/communicationorganisation/1546> ; DOI : 10.4000/ Communicationorganisation.1546, p 3.

إن نسبة كبيرة من السكان يفضلون الإبقاء على علاقة سطحية مع جيرانهم، وللحيلولة دون تعمقها، يفضل بعضهم أن يمضي وقت فراغه إما داخل شقته (48%) أو في مقهى خارج الحي الذي يقطنه (49%) في حين لا تتجاوز نسبة من يمضون أوقات فراغهم مع بعض الجيران 3%. بل إن المناسبات الدينية والأفراح والمآتم التي كانت فرصة للقاء بين الجيران وتوطيد العلاقات ومحو الخلافات وتجاوزها، لم تعد تفلح في مد صلة الوصل بين المتجاورين والتقريب بينهم، لأن أغلبهم أصبح يقيم هذه المناسبات في قاعات مخصصة لذلك بعيداً عن مقر السكن، ولا يدعو إليها إلا قلة من المقربين، وحتى إن أقدم على دعوة الجيران فإن الكثيرين منهم لا يلبي الدعوة.

قصارى القول، إن الوثيرة الإقتصادية والعمرانية التي وافقت تطور المدن والحوضر، كان لها كذلك الأثر البالغ على تقلص مشاعر الانتماء لدى الأفراد بفعل عملهم خارج أحيائهم⁽¹⁴⁾، وقضائهم لمعظم اليوم خارجها، فلو كان عمل هؤلاء يتم في نفس مقر السكن، لكان تعبيرهم عن مشاعر الانتماء أقوى.

خلاصات

- إن للمدينة نظامها وإيقاعها الخاص الذي يطبع الأفراد ويؤثر على سلوكهم، فتتحول بذلك نوعية العلاقة التي تربطهم بمن يقطنون بمحاذاتهم وتغير، ولعل هذا ما دفع الأنثروبولوجي، بل كلايف Clive Bell إلى تشبيه المدينة بالمصنع أو الآلة، التي تقوم بطبع سلوك الأفراد⁽¹⁵⁾.

- تحولت المدينة إلى فضاء متعدد المراكز espace polycentré نتيجة النمو الديموغرافي والتطور التكنولوجي، وصار الفرد مشتتاً بين هذه الفضاءات المراكز.

- إن الحدود مع الجار صارت تضيق يوماً بعد آخر، إلى أن بات التعامل معه يقتصر على التحية، ويتم هذا التفاعل فقط في الفضاء المشترك من المسكن، مثل المصعد أو المرائب، أو بعض الأجزاء المشتركة.

⁽¹⁴⁾ Le Drut, Raymond, « L'Espace Sociale de la Ville, Société et Urbanisme », Edition Anthropos, Paris, 1966, p 187.

⁽¹⁵⁾ كلايف بيل، "المدينة"، ترجمة محمود محود، المركز القومي للترجمة، سلسلة ميراث الترجمة، عدد 1346، القاهرة، 2006، ص25.

- إن التجاور المكاني لا يؤدي بالضرورة إلى تقوية علاقات الجوار، بل قد يكون عائقاً أمام قيامها أو استمرارها، إذ أن طائفة كبيرة من الجيران تفضل أن تحظى بعلاقات وطيدة خارج مقر السكن، أي في فضاء العمل أو في المقهى
- سعي الأفراد للتخلص من بقايا آثار التربية التقليدية التي لم تعد تتلاءم مع طبيعة الحياة الحضرية، تلك التربية التي يعتبر الانتماء والولاء للحي والدرب أحد مظاهرها، كما كان الشأن في القرى والمدن العتيقة.
- أن كان الاحترام الواجب تجاه الجار فيما مضى يستوجب التداخل والتواصل الدائم معه، أضحى اليوم يُعبّر عنه من خلال التباعد والتوقيف وعدم التدخل في شؤونه، سواء العامة منها أو الخاصة. لقد صار الجار النموذجي الذي بات يبحث الجميع عنه، هو ذاك الذي يغلق عليه باب بيته، ولا يهتم بشؤون الغير.
- يجب استحضار الجانب الثقافي للهوية المغربية اثناء تشييد المباني، عوض اعتماده في الجوانب المعمارية الشكلية فقط، اذ لا يهتم المسؤولون كثيراً بالحاجيات التي تعبر عنها الساكنة، مما جعل المسكن لا يرقى لمستوى الحاجات الثقافية التي يعبر عنها الأفراد.
- إن أغلب المشاكل التي تشهدها المباني العمودية (العمارات)، تعود بالأساس لجهل الأفراد بالقوانين المؤطرة للسكن المشترك، أو سوء فهمهم لها، أو ربما لا مبالاتهم بها.

الببليوغرافية

- الخولي سناء، "الأسرة والمجتمع"، دار النهضة العربية، لبنان، 1984.
- العليج أحمد الطيب، "عادات وأعراف المغاربة"، الجزء الأول، منشورات وزارة الشؤون الثقافية، 1994.
- رشيق عبد الرحمان، "السياسات العمرانية والعلاقات الاجتماعية في المغرب"، مجلة عمران، العدد 18، المجلد 5، سنة 2016.
- عثمان محمد عبد الستار، "المدينة الإسلامية"، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد 128، غشت 1988.
- غيث محمد عاطف، "علم الاجتماع الحضري"، ج 2 دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية مصر، 2005.

- كلايف بيل، "المدنية"، ترجمة محمود محود، المركز القومي للترجمة، سلسلة ميراث الترجمة، عدد 1346، القاهرة، 2006.
- هادي سمية، "سوسيولوجيا المدينة وأنماط التنظيم الاجتماعي الحضري"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 17، ديسمبر 2014.
- Arrif, Abdelmajid, « Fragments d'une Enquête dans un Bidonville de Casablanca », Ethnologie française, vol 31, no 1, 2001.
- Boughali Mohamed, « La Représentation de l'Espace chez le Marocain Illétré : Mythes et Tradition Orale », Paris, Éditions Anthropos, 1974.
- Castells, Manuel. « Vers une Théorie de la Planification Urbaine », Maspero, paris 1997 .
- Chamboredon Jean-Claude, Lemaire Madeleine, « Proximité Spatiale Et Distance Sociale. Les Grands Ensembles et Leur Peuplement », In Revue Française de sociologie, N° XI-1. Puf. Paris 1970.
- Le Drut, Raymond, « L'Espace Sociale de la Ville, Société et Urbanisme », Edition Anthropos, Paris, 1966.
- Hall Edward-T, « La Dimension Cachée », Traduit par Petita Amélie, Fabre-Luce, Anne, Éditions Points, collection points Essais, 2014.
- Burgess, W, Ernest, "The Growth of The City: an Introduction to a Research Project" in « the city » édition collectif (Park. E. Robert, Burgess. W. Ernest, McKenzie. D. Roderick), the Universty of Chicago Press. 1984.
- Whyte, William Foote Street, « Corner Society. The Social Structure of an Italian Slum », University of Chicago Press, Chicago, 1943.